الوحي وأسباب النزول

دراسة في الدور والعلاقة والتأثير

أ. عماد الهلالي(*)

مقدمة

يُعدّ الوحي من المحاور البارزة في أخبار أسباب النزول. فهو يمثّل، من بين ما يمثّل، إجابة عما حدث في واقع المسلمين زمن الدعوة المحمدية من قضايا أو عما ألقيَ على الرسول من أسئلة مثّلت أسباباً مباشرة لنزول الوحي.

والحق ان الخوض في هذه المسألة لا يخلو من بعض الصعوبات، أهمها أن الوحي مفهوم مفارق ممثّل لركيزة أساسية من ركائز الدين الإسلامي. ولكنه في الوقت نفسه مجسّد في نص يتداوله المؤمنون خاصة بعد ان استحال القرآن مصحفاً[1].

ولا شك في ان الانتقال من «المتعالي» إلى «المحايث»[2] قد استفزّ القدامى للنظر في أشكال الوحي وطرقه. واختلفوا في هذا الباب اختلافاً.

وفضلاً عن ذلك فإن معرفتنا بالإطار التاريخي الذي نزل فيه الوحي معرفة غير مباشرة؛ لأن المؤلفات التي تصف ذلك الإطار التاريخي ألّفت في وقت متأخر[3]. ولذلك فهي تعكس/تمثّل أصحابها للوحي المنزّل على النبي. ونعتقد ان أقدم مصدر جدير بالثقة في تعريفنا بموضوع الوحي هو القرآن بلا منازع، ولكن دون استبعاد ما احتفظت لنا به المؤلفات الإسلامية القديمة من أخبار تهمّ الوحي استبعاداً كلياً أو قبولها على علاتها دون أدنى سؤال عن قيمتها التاريخية[4].

الوحي لغة

قال في الأساس: أوحى إليه وأُوحي إليه بمعنى، ووحيت إليه وأوحيتُ إذا

(*) باحث في الحوزة العلمية، من العراق.

كلمته بما نخفيه عن غيره، وأوحى الله إلى أنبيائه، ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ قال الراغب: أصل الوحي الإشارة السريعة، ولتضمّن السرعة قيل: أمرٌ وحيٌ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، قد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة، وقد حُمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾، أي أشار إليهم ولم يتكلم.

فقد قيل: رَمَزَ. وقيل: أشار، وقيل: كتب[٥].

فالقول الجامع في معنى الوحي اللغوي: انه الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه اليه، بحيث يخفى على غيره، ومن وحي الإيماء بالجوارح قول الشاعر:

نَظَرْتُ إليها نظرة فتحيّرت ... دقائق فكري في بديع صفاتها

فأوحى إليها الطرف أني أحبها ... فأثّرَ ذاكَ الوحي في وجناتها[٦]

وكلمة «وحي» موجودة عديد المرات في القرآن لوصف ماهية الخطاب القرآني وعلاقة الله بالنبي محمد والإلهامات الموجهة إلى الأنبياء من قبله[٧].

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

نظريات في الوحي

والذي ينبغي التنبيه إليه ان دراستنا للوحي من خلال علم أسباب النزول تسعى إلى تجاوز المواقف والنظريات من الوحي التي ليست لها مرجعية موضوعية.

النظرية التقليدية

أولاً: موقف إيماني يعتقد أصحابه ان القرآن كلام الله عينه لم يكن فيه الرسول إلاّ مبلّغاً له دون أدنى تدخّل منه. في هذه النظرية ما ان تذكر الوحي حتى يتبادر إلى ذهنهم ان الله مستقر في الأعالي في نقطة في السماوات ـ السماء السابعة مثلاً ـ بعيدة جداً جداً، فيما النبي يعيش على الأرض، وإذا ما أراد الله ان يوصل تعاليمه إلى النبي احتاج إلى موجود يقطع هذه المسافة، ولا بد ان يكون الموجود

ذا جناح وريش ليكون بمقدوره قطع هذه المسافة الشاسعة، كما لا بد وان يتمتع بالعقل والإدراك لكي يكون بمستطاعه ان يوصل للنبي الأمر الصادر عن الله[٨].

وبذلك احتفظ المصحف العثماني بالقرآن كله وبالشكل الذي نزل على محمدﷺ. وغني عن البيان ان هذا الموقف فرض سيادته على الفكر الإسلامي قديماً[٩].

النظرية التنويرية

ثانياً: ثَمَّ تفسير آخر يقع في النقطة المقابلة للنظرية العامية (التقليدية)، وهو لا يتوخى إنكار النبوة، فالذي يطلقه لا يُريد الإنكار، بل اعتمد هذا التفسير لنفسه وحسب.

لقد كتب السيد أحمد خان الهندي تفسيراً على نمط خاص، وهو يتبنى ـ تقريباً ـ هذا التفسير الذي سنعرضه، كما تبناه أفراد آخرون.

لقد شاء بعض الناس ان ينظر إلى الوحي من قبل الله ونزول الملائكة والتشريع السماوي وجميع ما يتصل بذلك على انها مجرد تعابير مجازية، حيث لا يمكن التحدث مع عوام الناس إلاّ بمثل هذه اللغة.

يقوم منطق هؤلاء على ان النبي نابغة اجتماعي، بيد انه نابغة محب للخير، وهذا النابغة الذي وهبه الله هذا النبوغ ظهر في المجتمع، وراح يتأمل بأوضاع مجتمعة، ويرصد ما يحيط بالناس من أوجاع وضروب وفساد، وعندما يدرك ذلك كله وينفعل به يفكر بتغيير أوضاع الناس. وبالنبوغ الذي يحظر به يرسم للناس طريقاً صحيحاً جديداً ويبينه لهم.

وعندما يُسأل هؤلاء: إذن، ما هو الوحي؟ وماذا يعني الروح الأمين وروح القدس؟ يردّون بأن روح القدس ليس إلاّ الروح الباطنية للنابغة، والعمل الروحي الذي يتمتع به ويسبغ عليه الإلهام.

فالنابغة يأخذ الإلهام من باطنه وليس من موضع آخر. ولما كانت هذه الأفكار تنبثق من أعماق روحه ثم تنطلق إلى سطحها، فنحن نقول إن الروح الأمين جاء بها، ولما كان الله هو مصدر جميع الأفعال، وكل شيء بيده، فالله إذن هو الذي

بعث النابغة، لأن أي فعل لن يكون إلاّ ان يشاء الله.

وبهذا يكون معنى الوحي في هذه النظرية هو الانبثاق من عمق فكر النبي إلى ظاهر فكره.

وإذا سألنا هؤلاء ما هو الدين؟ يجيبون: لما كانت القوانين التي وضعها النابغة قوانين صحيحة وصالحة حقاً، وهي مفيدة لسعادة المجتمع ـ في ذلك الوقت ـ فهي إذن دين من قبل الله[١٠].

نظرية محمد إقبال وعبد الكريم سروش

ينطلق الدكتور سروش لنظرية الوحي من خلال نظرية إقبال في هذه المسألة، فينقل رواية عن كتاب مفاتيح الغيب لصدر الدين الشيرازي «إن لله عباداً ليسوا بأنبياء تغبطهم النبوة» قائلاً:

يعني هؤلاء يستوحون معارف غيبية في واقعهم الباطني، ربما تكون مرتبتهم أعلى من بعض الأنبياء الإلهيين الذين ورد ذكرهم في تاريخ النبوات، ومع ذلك فإن هؤلاء العباد ليست لديهم رسالة خاصة وشريعة سماوية لتبليغها للناس.

إن منبع الخطاب النبوي هو من جنس الوحي، والوحي بدوره كما يرى إقبال هو من جنس الغريزة ـ أي: الدوافع النفسية ـ ولكن مضمونه ومحتواه خطاب عقلاني، أي: انه يدفع بالإنسان والبشرية لسلوك خط العقلانية والاستفادة من العقل الاستقرائي والتأمل في عالم الطبيعة والتاريخ.

فعند ظهور هذه التأملات والمفاهيم، ووصول العقل إلى مرتبة الحجية انتهت حجية الغريزة أو الوحي في ما تمثله من مصدر معرفي للإنسان، وكما يقول محمد إقبال: إن هذا المعنى يعد من كمال النبوة حيث أدرك النبي ان التاريخ البشري لا يتحمل بعد الآن ظاهرة النبوة وقد بدأت مرحلة العقلانية بالظهور، وينبغي على الإنسان ان ينظر إلى مضامين الوحي والتجارب الدينية، بل إلى جميع المعارف البشرية برؤية نقدية... والإنسان المعاصر يستطيع من خلال الاستفادة من التراث البشري ان يقود سفينته ـ رغم التحديات والظروف الصعبة ـ ويوصلها إلى

ساحل الأمان[١١].

ويضيف الدكتور سروش قائلاً:

إن متعلق الوحي ـ والخاتمية ـ هي الشخصية الحقوقية للنبي. أي: ولايته التشريعية، بمعنى: ان النبي نفسه لا يرى أنّه ملزم ومكلف بإقامة الدليل والإتيان بقرينة وشاهد، ومن هنا كان الوحي ـ الخطاب الديني ـ خطاباً ولائياً وليس خطاباً برهانياً.

وتوضيح ذلك: ان الكلام عندما يستمد حجته من عملية الاستدلال والقواعد المنطقية، فإن ذلك يعني قطع الرابطة مع الوحي، بحيث يكون الميزان والمعيار لصحة ذلك الكلام والخطاب هو ميزان الدليل والبرهان، فإن كان دليلاً مقنعاً فسوف نقبل المدعى وإلاّ فلا.

فالأنبياء من النادر ان يتحركوا في مجال الوحي على مستوى الاستدلال، فالعمدة في الوحي هو شخصية النبي وتجربته الدينية أو تعاليمه السماوية، وأساساً فإن هذا المعنى للوحي هو شأن النبوة[١٢].

النظرية الاستشراقية

ثالثاً: جنح ممثلو هذه النظرية من بعض أهل الاستشراق إلى طمس الخاصية المفارقة في الوحي، فاعتبروه كلام محمد لا كلام الله، وعينوا مصادر ثقافية عديدة استقى منها النبي مادة القرآن[١٣].

يقول المستشرق «وليم مونتجمري وات» William montgomry watt:

إن القرآن كتاب بشري، وان الوحي داخلي، لذلك كان محمد مسيطراً عليه، وبإمكانه استدعاؤه وصرفه في أي وقت يشاء. فمخيلة محمد كجهاز تختزن فيه المعلومات ثم تستدعى حسبما يريد الإنسان[١٤].

والوحي مستقاه من المحيط الجماعي الذي عاش فيه قبل البعثة... وما كان الملك «جبرائيل» إلاّ خيالاً أدى إلى حضور تلك الموضوعات إلى وعيه، في الحالة التي يسميها وحي[١٥].

ويقول المستشرق «درمنغام» E. Dermenghem:

القرآن فيض من وجدان محمد، وصورة من انطباع نفسه بما كان يدور حوله وأمام عينه.

والوحي ليس إلاّ وحياً من داخل نفس الرسول لا من مصدر خارجي، أي من العقل الباطن لا من رب العالمين.

ذهب هذا المستشرق إلى نظرية الفيلسوف «أرسطو» الذي ذهب إلى ان الجسد سجن النفس، وان الإنسان ـ أي إنسان ـ إذا أجاع الجسد وأمرضه، انطلقت نفسه وعندها تتصل بالعالم العلوي فتسمع أصواتاً وترى أشباحاً... هذه نظرية النبوة عند الإغريق[١٦].

ولقد فرّق المستشرق الألماني الدكتور تيودور نولدكه «Theodor Noldke» بين الوحي والإلهام تفريقاً فيه مزيج بين الواقع والصوفية، فعدّ الوحي خاصاً بالأنبياء، والإلهام خاصاً بالأولياء، إذ لا يوحى إليهم[١٧].

نظرية معروف الرصافي عن الوحي

كذلك يعتبر الشاعر والمفكر العراقي معروف الرصافي الوحي بأنه كلام محمد لا كلام الله، حيث يقول: إن شخصية محمد شخصية ذكية، ذو عقلية ممتازة...

ويقول: جاء في كتب السير انه كان دائم الفكر، متواصل الأحزان، يحب الخلوة، فكان يذهب إلى جبل حراء فيبقى وحده في غاره الأيام والليالي، ولا شك انه لم يكن له في ذلك الغار شغل عن التفكير، ومما يدل على انه من المفكرين قوله في القرآن: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾.

وكان محمد شديد الفطنة، شديد الانتباه لما يجري حوله من الأُمور، فلا يفوته من الذين حوله همسهم، ولا ما يبدو على وجوههم من علامات السخط والرضا[١٨].

كان محمد واسع الخيال قويه جداً، وكان تفكيره وخياله فرسي رهان يجري أحدهما مع الآخر، فإذا تفكر في أمر تخيله وتصوره، وأخذ يصوره للعيان حتى يكون كأنه يراه بعينه ويسمعه بأُذنه ويلمسه بيده.

وأعظم دليل على سعة خياله وقوته ما جاء في القرآن وفي الأحاديث النبوية من

وصف الجنة وجهنم... ولا ريب ان الجنة التي وصفها محمد بأوصافها الباهرة المعلومة إنما هي من بنات خياله الواسع القوي؛ لأنها بهذا الشكل المبهج العجيب غير مذكورة في التوراة ولا في الإنجيل، فجنة محمد جديدة بأن تكون المثل الأعلى للسعادة المخيلة في الحياة.

ومن الدليل على قوة خياله وانه في طريق تفكيره إذا تخيل شيئاً تجسم له في ذهنه حتى صار يراه بعينه ويسمعه بأُذنه ما جاء في الأخبار عن بدء الوحي من رؤيته جبرائيل في أُفق السماء، فقد ذكر الرواة عنه انه قال:

«فخرجتُ ـ أي من غار حراء ـ حتى إذ كنت في شط من الجبل ـ أي جانب منه ـ سمعتُ صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبرائيل، فوقفت أنظر إليه فإذا جبرائيل على صورة رجل صاف قدميه»[١٩].

فعلى رأينا يكون الوحي كله بجميع أقسامه وصُوره كلام محمد، وليس كونه وحياً إلاّ بمعنى انه إلهام من الله، وان زعموا ان ذلك كفراً. وإذا كان قول الحقيقة كفراً كما يزعم المتدينون تديناً أعمى، فلينسبنا من شاء منهم إلى الكفر، وإنما أقول لهم ما قلتُ قبلاً:

هَل الكفرُ ألا تَرى الحقَّ واضحاً ... فَتضْرب للأنظار مِن دُونه سِترا

وأن تبصر الأشياءَ بيضاً نواصِعاً ... فتظهرها للنّاس قانية حُمْرا[٢٠]

النظرية الحسية

رابعاً: تنطلق هذه النظرية من قناعة فحواها ان لجميع أفراد البشر إدراكاً وشعوراً وحساً باطنياً خاصاً وإضافياً علاوة على العقل والحس العاديين[٢١].

ولكن غاية ما في الأمر ان هذا الحس أو الشعور الباطني يتفاوت بين إنسان وآخر، بحيث يبلغ في بعضهم درجة شديدة من القوة تؤهل صاحبها للارتباط الحقيقي الواقعي مع العالم الآخر، أما ما هو هذا العالم فلا ندري؟

والذي يحصل نتيجة هذا الارتباط هو ان تنفتح لهذا النمط من البشر أبواب العالم الآخر على وجه الواقع. ومن ثم فإن المسألة لا تقتصر على الفعالية الوجودية

للإنسان ونبوغه الخاص، بل غاية دوره في العملية ان له استعداداً للارتباط بالخارج وبما وراء هذا العالم وحسب.

وهذه الخاصية ـ الحس الآخر والاستعداد المتميز للارتباط بالعالم الآخر ـ لا تقتصر على الأنبياء بنص القرآن؛ لأن القرآن صرّح بنفسه بوجودها بشكل قوي جداً عند غير الأنبياء أيضاً، مثل والدة عيسى ووالدة موسى و...[٢٢].

النظرية الحسية عند الشهيد الصدر

يقول الشهيد محمد باقر الصدر بأن الوحي ضرورة من ضروريات تخليد الإنسان على وجه الأرض، ولهذا خلق الله الإنسان، وأودعه الاستعداد الكامل، والأرضية الصالحة، بإفاضة هذه الموهبة منه سبحانه.

والإنسان خلق حسياً أكثر منه عقلياً، خُلق يتفاعل مع حسه أكثر مما يتفاعل مع عقله... وهذا يعني ان الحس أقدر على تربية الإنسان من النظر العقلي المجرد، ويحتل من جوانب وجوده وشخصيته، وأبعاد مشاعره وعواطفه وانفعالاته، أكثر مما يحتل العقل «المفهوم النظري المجرد»[٢٣].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الحس المربي للإنسانية

بناء على هذا كان لا بد للإنسانية من حس مربٍّ زائد على العقل والمدركات العقلية الغائمة الغامضة، التي تدخل إلى ذهن الإنسان بقوالب غير محددة وغير واضحة.

الحس هو المربي الأول دائماً، ولكي يمكن تربية الإنسان على أساس حس يبعث في هذا الإنسان إنسانيته الكاملة، الممثلة لكل جوانب وجوده الحقيقية، كان لا بد من خلق حس في الإنسان، يدرك تلك القيم والمثل والمفاهيم، ويدرك التضحية في سبيل تلك القيم والمثل إدراكاً حسياً، لا إدراكاً عقلانياً بقانون الحس والقبح العقليين.

وهذه الأرضية، أو هـذا الاسـتعداد الكامـل كـان الارتبـاط المباشـر مـع الله سبحانه وتعالى، لكي تنكشف كل الصحف، كل الستائر، عن كل القيم، وكل المثل، وكل هذه الاعتبارات والأهداف العظيمة لكي تُـرى رؤيـة العـين، وتُسـمع سـماع الأذن، لكي يلمسها بيده، ويراها بعينه[٢٤].

إذن، هذه الأشياء والقـيم الحسـية إذا أصـبحت أمـراً واقعيـاً فـي أشـخاص معينين، يختصهم الله تعالى بعنايته ولطفه واختياره، وهؤلاء هم الأنبياء والمرسلون.

وهذا الحس هو الذي استطاع ان يُربي شخص النبي ﷺ وسائر الأنبياء، مـن آدم ونوح وإبراهيم ولوط وهود وموسى وعيسى، وأعدّهم لكي يكونـوا الممثلـين الطليعيين، والروّاد الأوائل لخط هذه القيم والمثل الإنسانية، والأهداف الكبيرة[٢٥].

هذا الحس رباهم أولاً بالذات، ثم خلق وجوداً حسـياً ثانويـاً، هـذا الوجـود الحسي الثانوي ـ الوحي ـ كان هو المربي للبشرية.

النظرية الفلسفية الإسلامية (عند القدماء)

خامساً: إن إعادة إحياء التراث الهيليني قد أنشأت حركة فلسفية عُرفت باسـمها اليوناني وهو فلسفة «Philosophy»، حيث هذا الإحياء الفلسفي أدى إلى تطور الفلسـفة الإسلامية ونموها، وهذه الفلسفة حاولت أما تطوير الوحي أو استيعابه.

وفي حين وقف بعض الفلاسفة موقفاً رافضـاً مـن مسـألة الـوحي، فقـد رأينـا الأكثرية تحاول استيعاب المسألة، فهـؤلاء الفلاسـفة جعلـوا العقـل يغلّـف الـوحي[٢٦] ويستوعبه، ذلك أنهم رأوا فيه وسيلة مفيدة ـ على بدائيتها ـ لمخاطبة عامة النـاس مـن ذوي القدرة المحدودة[٢٧].

موقف الفلاسفة هذا من رجال الدين يعكسه الكنـدي[٢٨]، أول الفلاسـفة، وهـو يصرّ على «ان صناعة الفلسفة هي أنبل صنايع بنـي البشـر»[٢٩]. ومـن هنـا ينطلـق إلـى مهاجمة رجال الدين زاعماً انهم ضئيلو المعرفة، وانـه لا هـمّ لهـم سـوى الـدفاع عـن مراكـزهم ومصـالحهم الشخصـية دون الالتفـات إلـى الحقيقـة[٣٠]. ولـيس مفاجئـاً ان الفلاسفة، بإعطائهم مسألة الوحي مرتبة ثانوية وباتخاذهم موقفاً متعالياً[٣١] أثـاروا عـداء الفقهاء الذين بلغ تطرفهم حد اتهام الفلاسفة بالكفر[٣٢].

حيث نجد مواقف مثل أبي العلاء المعري، وفخر الدين الرازي، وابن رشد، وسواهم ممن أنكروا ظاهرة الوحي والنبوءة، أو تعاملوا مع خطاب الوحي بوصفه معرفة بسيطة هي من الدرجة الثانية أو الثالثة، قد واجهوا مثل هذه التهم[٣٣].

ودليل الفلاسفة على جعل الوحي من الدرجة الثانية أو الثالثة، لأنهم لو أخذوا به قبل العقل ـ أي جعلوه من الدرجة الأولى ـ ففي هذه الحالة سوف يصبحون متكلمين لا فلاسفة، وهذا يخالف المنهج الفلسفي المتبع.

وهناك نظريات أُخرى عن الوحي ومفهومه، لا يسعنا طرحها في هذه الدراسة.

وعلى هذا، رأينا من المفيد إنجاز مقاربة انتروبولوجية للوحي[٣٤] حتى نتجاوز القصور المعرفي الغالب على هذه المواقف والنظريات من هذا المفهوم. ولذلك سنحرص في ما يلي من بحث على بيان حال الرسول عليه السلام النفسية والجسدية لحظة تقبّل الوحي من خلال أسباب النزول. وننظر بعد ذلك في العلاقات الزمانية بين وقوع السبب ونزول الوحي. ثم نختم البحث بتعيين أهم وظائف الوحي التي ترشح بها أسباب نزول القرآن.

أولاً ـ تقبل الرسول للوحي من خلال أخبار أسباب النزول

لما كانت أسباب نزول القرآن متعلقة في حدوثها بمرحلة تاريخية متميزة، وجد المفسرون وعلماء القرآن في شهادات بعض الصحابة وصفاً لحال الرسول عليه السلام لحظة تقبّله الوحي. واستعادوا من خلال تلك الشهادات تجربة فريدة افتقدتها الأجيال التالية لمجتمع الدعوة. فأعادوا بناء طور من أطوار الإسلام في بواكيره، خاصة ان نص المصحف لم يسعفهم بتفاصيل عن ذلك الطور. ويبدو في تقدير القدامى ان الرغبة في التعرّف إلى علاقة الرسول بالوحي ظهرت لدى الصحابة أنفسهم باعتبارهم شاهدين مباشرين على التنزيل. ولذلك تمنّى بعضهم معاينة الوحي قائلاً: «ليتني أرى رسول الله عليه السلام حين يُنزّلُ عليه الوحي»[٣٥].

وفعلاً فقد انصرف المفسرون وعلماء القرآن إلى دراسة هذا المبحث بمناسبة نظرهم في أسباب نزول القرآن. ونقلوا نصوصاً مصوّرة لحال الرسول عند

نزول الوحي عليه بعد ما يُلقى عليه من أسئلة أو إثر ما يحصل في واقع المجتمع وقتئذ من أحداث ونوازل تستدعي حُكماً أو بياناً قرآنياً. وبالإمكان الإلمام بحال الرسول تلك عبر المستويين التاليين: المشاعر النفسية، والعلامات الجسدية.

١ ـ المشاعر النفسية

تضمّنت بعض أخبار **أسباب النزول إشارات إلى الحالة النفسية التي يكون عليها الرسول ﷺ حين يفاجئه الوحي.** من ذلك شعوره بالشدّة والتوتّر النفسي. وهذا ما ينقله الطبري عند تناوله سبب نزول الآيتين الأُولى والثانية من سورة الفتح (٤٨)، إذ يقول عبد الله بن مسعود متحدّثاً عن الرسول: «فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي». وكان إذا أتاه اشتد عليه. فلما سُرِّيَ عنه أخبرنا أنه أُنزل عليه: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً**﴾.

ووجد القدامى ما يؤكد هذا الشعور بالشدة التي تنتاب الرسول في قول ابن عباس متحدثاً عن سبب نزول الآيتين ١٦ و ١٧ من سورة القيامة (٧٥): «كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدّة. وكان مما يحرّك شفتيه. فأنزل الله تعالى:

﴿ **لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (*) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**﴾

على ان هذا الشعور النفسي بالشدة، قد يكون أخف وطأة على الرسول من ذلك الإحساس بالرعب والفزع الذي ألمّ به أول عهده بالوحي. فلم تَعْتَدْ نفسه وقتئذ على خوض مثل هذه التجربة المفارقة. وفي ذلك يقول الرسول مشيراً إلى سبب نزول الآيات الخمس الأُولى من سورة المدثّر (٧٤): «بينما أنا أمشي، إذ سمعت صوتاً من السماء. فرفعت بصري، فإذا الملَكُ الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض. فَرُعِبْتُ منه. فرجعت. فقلت: زمِّلوني...»[٣٦].

تخلّص الرسول من الحالات الشديدة عند نزول الوحي

والظاهر في طور الوحي المدني، أي بعد مرور أكثر من عقد على بدء تلقيه الرسالة. وربما استبد به شعور خاص لا يعكس معاناة نفسية بقدر ما يعبّر عن لذة

خاطفة مرغوب فيها. ولنأخذ شاهداً على ذلك وصف عائشة لحال الرسول عند نزول الآيات (١١ ـ ٢٢) من سورة النور (٢٤): «فشَخُصَ بصر رسول الله إلى السقف. وكان إذا أُنزل عليه وَجَدَ»[٣٧].

والذي وقر في أذهان القدامى أن في لوذ الرسول بالصمت برهة إثر سؤال يُوجّه إليه أمارة على تلقّيه الوحي. إذ يكون في تلك اللحظة منشغل البال والخاطر. وهذا ما استنتجه عبد الله بن مسعود عند سبب نزول الآية ٨٥ من سورة الإسراء (١٧): «بينا مع النبيﷺ في حرث، وهو متكئ على عسيب، إذ مرّ اليهود. فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال: ما رابكم إليه ـ وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه ـ فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح. فأمسك النبيﷺ فلم يَرُدَّ عليهم شيئاً. فعلمتُ انه يوحى إليه. فقمتُ مقامي. فلما نزل الوحي قال:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

العالم الداخلي للرسول

هذه إذن أهم المشاعر النفسية التي لاحظها الصحابة على الرسول أو عبّر عنها هو ذاته في عملية تقبّل التنزيل. ولما كانت هذه المشاعر متصلة في الغالب بالعالم الداخلي للرسول، فإنه يصعب أحياناً على الصحابة رصدها أو الانتباه إليها. ولذلك تركّز اهتمامهم على ما يبدو على الرسول من علامات جسدية تشير في تقديرهم إلى طبيعة الوضع الخاص الذي يكون عليه لحظة تقبّل الوحي.

٢ ـ العلامات الجسدية:

احتفظت لنا مجاميع الحديث وكتب التفسير ومصنّفات علوم القرآن بشهادات للصحابة تصف العلامات الجسدية البادية على الرسول حينما ينزل عليه الوحي. وكان الخوض في أسباب النزول مناسبة لنقل تلك الشهادات على فرض حقيقتها التاريخية. ولعل من أبرز الأعراض التي كانت تظهر على الرسول في ذاك الظرف الاستثنائي تصبّب العرق، وهو علامة مادية على المكابدة التي يلقاها والمشقّة التي تعتريه عند تلقّيه الوحي. وقد راجت عند القدامى الرواية المنسوبة

إلى عائشة التي تصف فيها حال الرسول لحظة نزول الوحي عليه قائلة: «فوالله ما رام رسول الله ﷺ منزله ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحَاء[٣٨] عند الوحي حتى إنه ليتحدّر منه مثل الجُمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه من الوحي...»[٣٩]. وتؤدي به هذه الحالة، في الغالب، إلى الشعور بالارتعاد.

فممّا ترويه خولة خادم النبي، في سياق حديثها عن سبب نزول سورة الضحى (٩٣) قولها: «فجاء نبي الله تُرْعَدُ لَحْيَاهُ ـ وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرّعدة ـ فقال: يا خولة «دثّريني» ، فأنزل الله هذه السورة»[٤٠].

حالات أُخرى للرسول أثناء نزول الوحي

وعثرنا في أخبار أسباب النزول على صورة أُخرى عن حال الرسول متمثّلة في احمرار وجهه ـ أو اصفراره في بعض الروايات ـ وتربّده[٤١]. وعادة ما تكون هذه الحال مقدمة لما ينتاب الرسول من غشْي أو سُبات ربما يستغرق ساعة من الزمان. فهذا عبادة بن الصامت (ت ٣٤هـ) يقول: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ احمر وجهه. وكان يفعل ذلك إذا نزل عليه الوحي. فأخذه كهيئة الغَشْي لما يجد من ثقل ذلك»[٤٢]. ولم يبعد الرازي عن هذه الصورة في وصف تقبّل النبي للوحي. فقد «كانت تغشاه حالة عجيبة عند نزول الوحي، فيتغيّر وجهه ويصفرّ لونه وتعرض له حالة شبيهة بالغشي»[٤٣].

وقد ينزل الوحي على الرسول دون ان يلمّ به من الأعراض سوى ما يأخذه من نوم خفيف لا يجد فيه معاناة. وفي ذلك يقول أنس بن مالك واصفاً حال الرسول عند نزول سورة الكوثر: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أغفى إغفاءة. ثم رفع رأسه متبسّماً. فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: نزلت عليّ آنفاً سورة. فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (*) إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

وضع يد الرسول على جبهته:

ويدرك الصحابة وقت تقبّل الرسول للوحي من علامات أُخرى غير ما

ذكرنا، من قبيل وضع يده على جبهته. وهذا ما يرويه عبد الله بن مسعود ذاكراً سبب نزول الآية ٨٥ من سورة الإسراء (١٧)[٤٤]، أو من نحو شخوص بصره. ودوننا قول ابن عباس متحدّثاً عن سبب نزول الآية ٩٠ من سورة النحل (١٦): بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته بمكة جالساً، إذ مرّ به عثمان بن مظعون، فكَشَرَ إلى رسول الله ﷺ. فقال له: ألا تجلس؟ قال: بلى. فجلس إليه مستقبله. فبينما هو يحدّثه إذ شخص بصره إلى السماء. فنظر ساعة وأخذ يضع بصره حتى وضع على يمينه في الأرض، ثم تحرّف عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره. فأخذ يُنْغِضُ[٤٥] رأسه كأنّه يَسْتَفْقِهُ ما يقال له، ثم شخص بصره إلى السماء كما شخص أوّل مرّة. فأتبعه بصره حتى توارى في السماء. وأقبل على عثمان كجلسته الأولى. فقال: يا محمد، فيما كنتُ أجالسك وآتيكَ، ما رأيتك تفعل فعلتك الغداة. قال: وما رأيتني فعلت؟ قال: رأيتك تشخص بصرك إلى السماء، ثم وضعته حين وضعته على يمينك، فتحرّفت إليه وتركتني... قال: أوَفَطِنْت إلى ذلك؟ قال عثمان: نعم. قال: أتاني رسول الله جبريل آنفاً وأنت جالس. قال: رسول الله؟ قال: نعم. قال: فماذا قال لك؟ قال: قال لي:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً ﷺ[٤٦].

استغراب الرسول

يستفاد من هذا الشاهد ان الرسول يكون غير واع بما يبدو منه من أفعال أو ما يأتيه من تصرّف لحظة اتصال جبريل به وتبليغه الوحي. ولذلك استغرب الرسول من تفطّن عثمان بن مظعون (ت ٢هـ) إلى الحالة التي كان عليها وقتئذ.

ويمكن ان تتحول معاينة الصحابي لنزول الوحي على الرسول إلى إحساس شخصي مباشر ينسجم مع التصور القديم لمفهوم الوحي. وفي هذا السياق يقول زيد ابن ثابت أثناء سرده سبب نزول الآية ٩٥ من سورة النساء (٤): «... فأنزل الله على

رسولهﷺ وفخذه على فخذي. فثقلتْ عليّ حتى خِفْتُ ان تُرضّ فخذي، ثم سُرِّيَ عنه، فأنزل الله...»[٤٧].

ولا يقتصر هذا الإحساس بثقل الوحي على عالم الإنسان، وإنما يشمل أيضاً عالم الحيوان. من ذلك مثلاً ان الآية الثالثة من سورة المائدة (٥) «نزلت في يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر، ورسول اللهﷺ واقف بعرفة على ناقته العضباء. فكاد عضد الناقة ينقدُّ من ثقلها، فبركت»[٤٨]. ومما يؤكد الوجود المادي للوحي من منظور القدامى ان النبي ـ مثلما يقول عمر بن الخطاب ـ «إذا أُنزلَ عليه الوحي سُمِعَ عند وجهه كدوي النحل. وأنزل عليه يوماً. فمكثنا ساعة. فَسُرِّيَ عنه...»[٤٩].

هذه إذن نماذج ممثّلة للحال التي يكون عليها النبي عند تقبّله الوحي استقيناها من أخبار أسباب النزول. والمؤكّد ان المفسّرين والمحدّثين وعلماء القرآن قد قبلوها على علاتها بما ان رواتها من الصحابة الذين شاهدوا بحضورهم على نحو ما يرويه أبو هريرة: «كنا جلوساً عند النبيﷺ، فنزلت عليه سورة الجمعة»[٥٠]، و... .

صُور القدامى لحظة نزول الوحي

ويحسن بنا بعد هذا العرض إبداء ملاحظات واستنتاجات في شأن الصورة التي رسمها القدامى للرسولﷺ لحظة نزول الوحي عليه. ويشغلنا في هذا المقام سؤال مهم: ما الذي يبرّر اهتمامهم بوصف حال النبي في تلك اللحظة؟

لعلّنا لا نبعد لو قلنا ان الأجيال الإسلامية التي أعقبت جيل الصحابة حرصت على استعادة طور متميّز من مسار الإسلام كان فيه الحوار بين الوحي والتاريخ قائماً. غير ان هذه الاستعادة لم تنفك ـ وأنى لها ذلك ـ عن المؤثرات الثقافية والمعرفية والاجتماعية التي طبعت المجتمعات التالية لمجتمع الدعوة. ولذلك، فإن ما نقله لنا المفسّرون وعلماء القرآن وعلماء الحديث عن حال الرسول إنما يعكس، عند الفحص، تمثّلاً معيّناً لذاك الطور المتميز. ومن أبرز خصائص هذا التمثّل أن فُهِمَ الوحي فهماً مادياً لا مجازياً[٥١]. وعندئذ تحدّثوا عن ثقله[٥٢] وشدته على النبي،

والذي بدا في نظرهم كأنه يعاني من حالة مرضية[٥٣].

هيئة النبي أثناء نزول الوحي

وجليّ بعد هذا، أن الهيئة التي يكون عليها النبيﷺ في لحظات تقبّل الوحي لم تكن غريبة عن مجتمع يسكنه المقدس بشتى أشكاله، ويغلب عليه الاعتقاد في الكائنات اللامرئية وما تمارسه من سلطان على البشر. فحالة الغشي التي تنتاب الرسول تذكّر دون شك بما يصدر عن الكاهن مثلاً من أفعال حين يستبدّ به تابعه[٥٤]، أو عندما يسكنه الجن. ولذلك وصفه «كفار قريش» بالمجنون، ورموه بممارسة السحر والكهانة. ولكن القرآن برّأه من ذلك كله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ﴾.

ولا مناص لنا من التذكير بأن الصورة التي تمثّلها القدامى عن الرسول عند تلقّي الوحي تضارع ـ على نحو ما ـ صورة أنبياء بني إسرائيل لحظة انكشاف الإله لهم، فيأخذ منهم الخوف والرعب مأخذاً. فهذا النبي إشَعْيَاء يقول: «... لذلك امتلأت حقوايَ وجعاً وأخذني مخاضٌ كمخاض الوالدة. تلوّيت حتى لا أسمع. اندهشتُ حتى لا أنظر. تاه قلبي، وبغتني رُعبٌ...»[٥٥]. وهذا النبي دانيال يصف حاله عند رؤيته المَلاك: «... لم تبْقَ فيَّ قوّة ونضارتي تحوّلت فيَّ إلى فَساد، ولم أضْبط قوّة. وسمعتُ صوت كلامه. ولما سمعتُ كلامه كنتُ مُسَبَّخاً[٥٦] على وجهي، إلى الأرض. وإذا بيد لمستني وأقامتني مرتجفاً على ركبتيَّ وعلى كفَّي يديَّ»[٥٧].

نتيجة البحث

والحاصل من ذلك كله ان حديث القدامى عن حال الرسول عند تقبّل الوحي استناداً إلى روايات أسباب النزول لا أساس له من الصحة التاريخية. والذي يقوّي طعننا في تلك الروايات حجتان.

الأُولى: وهي الأهم مفادها ان القرآن نفسه لم يصف البتة حال النبي لحظة نزول الوحي عليه[٥٨].

والثانية: ان بعض الروايات المندرجة في هذا المبحث قد أُسْنِدَتْ بالأساس إلى عائشة وابن عباس. وقد أوضحنا سابقاً انهما لا يُعدّان شاهدين حقيقيين على الوحي المحمدي برمته. ولذلك فإن ما يقوله ابن عباس عن الرسول ﷺ عند نزول الآية التسعين من سورة النحل (١٦) ليس له قيمة تاريخية بما ان هذه السورة مكية. ولا يمكن، في الأحوال كلها، ان يكون سن ابن عباس عند نزول السورة أكثر من ثلاث سنوات مما يجعله غير مؤهل بالمرة لوصف حال الرسول.

وحتى إذا افترضنا ان ما وُصِفَ به النبي ﷺ صحيح وسلّمنا بحقيقة المرويات المنسوبة إلى الصحابة، فإن ذلك يصطدم بما ينبغي ان يكون عليه المتلقّي للوحي من ثبات وهدوء نفسي حتى يستوعب التنزيل ويتمكّن من تبليغه بتمامه دون تصرّف في صياغته بالزيادة أو بالنقصان، مثلما يعتقد الموقف السنّي. فالحالة التي يكون عليها النبي من غَشْي أو سُبات أو شخوص بصر تتعارض ومقتضيات التبليغ وشروطه[٥٩].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الاحتراز عن هذه الروايات

لذلك يحق لنا الاحتراز من هذه الأخبار، سواء أصدرت عن بعض الصحابة أم نُسِبَتْ إليهم في عصر تال لعصرهم. فلا شيء يثبت صحتها التاريخية. وأقصى ما يمكن ترجيحه في هذا الباب انّ الرسول ﷺ يكون في وضع خاص ـ لا نستطيع وصفه أو تحديده ـ عند تلقّي الوحي. والمؤكد ان النبي، شأنه في ذلك شأن سائر الأنبياء المرسلين، عاش تجربة فريدة أسّست لـ «حدث تدشيني»[٦٠] متميز عملت الأجيال الإسلامية على استعادته، واعتقدت بأنها تعيد بناء المرجع التاريخي للوحي.

ثانياً ـ الفاصل الزمني بين وقوع السبب ونزول الوحي

ما يعنينا من هذا البحث محاولة تبيّن الفاصل الزمني بين السبب ـ سواء من جهة حدوثه في الواقع التاريخي أم من جهة علم الرسول به ـ ونزول الوحي

الموافق له استناداً إلى أخبار أسباب النزول. وأمكن لنا رصد ضربين محددين للعلاقة الزمنية بين السبب ونزول الوحي، هما: التعاقب الفوري، والتباعد الزمني. وقد اعتمدنا في التمييز بين هذين الضربين جملة من القرائن اللغوية الواردة في الأخبار. ولذلك لم نكتف بما يدلُّ عليه حرف «الفاء» سياقياً في تركيب تواتر كثيراً في الأخبار هو «... فأنزل الله تعالى...» إذ يشير هذا الحرف إلى معان عديدة في سياق استعماله من قبيل تعيين ما ترتّب على السبب أو الأسباب من نازل ومن سرعة نزول الوحي عقيب السبب أو من معنى التراخي بين السبب حدوثاً والوحي المنزّل في شأنه.

١ ـ التعاقب الفوري:

رشحت أسباب النزول بما يشير إلى ضمور الفاصل الزمني بين حدوث السبب ونزول الوحي المتعلّق به. ويكاد يتحوّل هذا الضمور إلى تزامن بين الطرفين في التحقق التاريخي. ولنا على ذلك شواهد عديدة منها ما يرويه ابن عباس عن سبب نزول الآية ٣٦ من سورة الأحزاب (٣٣) قائلاً: «إن رسول الله ﷺ انطلق يخطب على فتاه زيد بن حارثة. فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها. فقالت: لست بناكحته. فقال رسول الله ﷺ: فانكحيه. فقالت: يا رسول الله أؤامر في نفسي؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾[٦١].

ولا شك في ان سرعة نزول الوحي كان لها أثر عميق في إثناء زينب بنت جحش عن قرارها بعدم نكاحها من زيد بن حارثة (ت ٨ هـ). وفضلاً عن ذلك فإن سرعة نزول الوحي تؤكد صواب رأي النبي في خصوص هذا النكاح.

حينما لا يمتلك الرسول جواباً عن مسألة

وقد يتحقق التعاقب الفوري بين السبب ونزول الوحي حين لا يملك الرسول جواباً عن مسألة ما، فيتعذّر عليه حينئذ إبداء موقفه منها. وهذا ما تشفّ

عنه قصة نزول الآية الأُولى من سورة المجادلة (٥٨). إذ تقول عائشة: «... إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله، أبلى شبابي، ونثرتُ له بطني حتى إذا كبرَ سني، وانقطع ولدي، ظَاهَرَ مني. اللهم إني أشكو إليك، قال: فما بَرَحَتْ حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾»[٦٢].

وتكون استجابة الوحي فورية حتى في القضايا المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية، مما يقتضي نزول آيات لها معان تشريعية. وهذا ما ينطبق مثلاً على سبب نزول الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

من ذلك قول هلال بن أمية: «يا رسول الله إني وجدتُ مع امرأتي رجلاً رأيتُ بعيني وسمعتُ بأذني». فكره رسول الله ﷺ ما جاء به. فقال هلال: والله إنني لأرى الكراهة في وجهك مما أخبرتك به والله يعلم إني لصادق وما قلتُ إلاّ حقاً. فقال رسول الله ﷺ: إما البيّنة، وإما إقامة الحد عليك. فاجتمعت الأنصار... فبينما هم كذلك إذ نزل عليه الوحي. وكان إذا أنزل عليه الوحي أربدّ وجهه وعلا جسده حمرة. فلما سرّي عنه قال عليه السلام: أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً...»[٦٣].

يوم بدر

ويبدو ان سرعة نزول الوحي عقيب السبب حسمت الخلاف الذي نشب بين المقاتلين المسلمين يوم بدر. إذ اختصموا إلى النبي في الغنائم. وفي ذلك يقول الصحابي عبادة بن الصامت (ت ٣٤هـ):

«لما هزم الله العدو يوم بدر واتّبعتهم طائفة يقتلونهم وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ واستولت طائفة على العسكر والنهب. فلما نفى الله العدو ورجع الذين يطلبونهم قالوا: لنا النفل نحن طلبنا العدو وبنا نفاهم الله وهزمهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: والله ما أنتم بأحق منا. نحن أحدقنا برسول الله ﷺ لا ينال

العدو منه غِرّة، فهو لنا، وقال الذين استولوا على العسكر والنهب: والله ما أنتم بأحق به منا. نحن أخذناه واستولينا عليه فهو لنا. فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾ (الأنفال: من الآية ١)[٦٤].

سرعة نزول الوحي

ومما يدل على سرعة نزول هذه الآية بسبب آخر ورد في شأنها رواه سعد بن أبي وقّاص (ت ٥٥هـ) قائلاً: «لما كان يوم بدر قُتِل أخي عمير. فقتلتُ به سعيد بن العاص وأخذتُ سيفه. فأتيت به النبيﷺ. فقال: اذهبْ فاطرحه في القبض. فرجعتُ وبي ما لا يعلمه إلاّ الله من قتل أخي وأخذ سلبي. فما جاوزتُ إلاّ يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال. فقال لي النبيﷺ اذهب فخذ سيفك»[٦٥].

وقد تأتي الإجابة الفورية للوحي استدراكاً على نازل سابق من خلال ما ينشأ بين القرآن ومجتمع الدعوة من حوار على نحو ما حدّث به البراء بن عازب في شأن سبب نزول جزء من الآية ٩٥ من سورة النساء (٤)، إذ يقول: كنتُ عند رسول اللهﷺ. فقال: ادعُ لي زيداً وقل له يأتي، أو يجيء بالكتف والدواة، أو اللوح والدواة... ليكتب: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء:٩٥).

فقال ابن أُمّ مكتوم: يا رسول الله، إن بعيني ضرراً، فنزلت قبل ان يبرح: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾.

نزول الآية دون معرفة سببها!

وقد تبلغ سرعة نزول الوحي مبلغاً لا يتصوره الرسولﷺ نفسه. من ذلك أن الآية ٢٨ من سورة المطففين نزلت عليه ولما يبلغه سببها. بل نكاد نقف في هذا المثال على تزامن حقيقي بين وقوع السبب ونزول الوحي الموافق له. وهذا ما يبيّنه

قول الإمام فخر الدين الرازي: «جاء عليّ عليه السلام في نفر من المسلمين. فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا. ثم رجعوا إلى أصحابهم. فقالوا: رأينا اليوم الأصلع. فضحكوا منه. فنزلت هذه الآية قبل ان يصل عليّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله»[٦٦].

تؤكد هذه الأمثلة وغيرها[٦٧] التعاقب الفوري بين حصول السبب ونزول الوحي المتعلق به. ولنا ان نسأل عن دلالات هذه الظاهرة، وعن قيمتها في أخبار أسباب النزول، وفي تصوّر القدامى للوحي والنبوة.

إن النزول الفوري للوحي عقيب الأسباب الواقعة في التاريخ أو إثر علم الرسول بها، يجعل من الوحي تابعاً أو قل خاضعاً للأسباب والحوادث خضوعاً تاماً، وهو ما يعني غياب العلاقة الجدلية التي كانت موجودة على عهد النبي بين الوحي والتاريخ. ويعني ذلك كله ان الوحي، بالشكل الذي قدّمته لنا أخبار أسباب النزول، ينزل على المقاس بياناً للمشكل أو تعديلاً لرأي أو تفنيداً لموقف أو تأييداً لاجتهاد، كأن الوحي، بهذا المعنى، ينتظر حصول الأسباب في الواقع التاريخي كي ينزل.

حدوث الأسباب ونزول الوحي

والذي يبدو لنا أنّ جل الأخبار التي تحقق فيها التعاقب الفوري بين حدوث الأسباب ونزول الوحي أظهرت موقفين للرسول إزاءها:

الموقف الأول: كان فيه محمد غير قادر على البت في ما يعرض عليه من مسائل. فما إن يلوذ بالصمت والترقب حتى يأتيه الوحي مُنجداً.

أما الموقف الثاني: فنرى فيه الرسول مجتهداً برأيه في التماس أجوبة عن بعض القضايا. وعندما يكون اجتهاده غير مصيب يُسْعِفُه الوحي سريعاً بالحكم الموافق للسبب. ونعتقد ان الغاية من تشديد المفسرين وعلماء القرآن على نزول الوحي إثر الأسباب مباشرة هي تلافي تقدير الرسول في ما يصدر عنه من أقوال أو مواقف. ذلك ان تأخر نزول الوحي في مثل هذه الحالات قد يفضي إلى العمل باجتهاداته، وهو ما يتعارض مع فهم القدامى للنبوة باعتبار ان النبي معصوم من الخطأ.

ومهما يكن من أمر، فإن القرائن اللغوية الدالة على التعاقب الزمني بين السبب والوحي لا تشير بإطلاق إلى واقع تاريخي حاصل، بل تعكس تصوّر

القدامى لعلاقة الرسول بالوحي. ولذلك لاحظنا ان تلك القرائن تُذكر في بعض روايات سبب نزول الآية، وتغيب عن روايات أُخرى متعلقة بالآية ذاتها[٦٨]. ومن ثم لا يُستبعد ان تكون هذه العلامات اللغوية المبيّنة للتعاقب في الحدوث بين السبب والوحي من وضع الرواة وعلماء القرآن والمفسرين متى سلّمنا بوجود أسباب تاريخية استدعت نزول عدد من أي القرآن.

٢ ـ التباعد الزمني:

ميّزت صفة «التباعد» العلاقة الزمنية بين حصول السبب ونزول الوحي. وهذا ما توضحه بعض أخبار أسباب النزول. فقد يقع السبب ويُعلم به الرسول عليه السلام، ولكن يبقى المشكل المعروض عليه معلّقاً ينتظر جواباً. وفي هذه الحالة يشق الأمر عليه؛ لأن ذلك يوفّر حجة للخصوم للطعن في نبوته وفي حقيقة تلقّيه الوحي من جبريل. ويقصر مدى هذا التباعد أو يطول بحسب الوضع الخاص الذي يكون عليه الرسول لحظة وقوع السبب.

ومما يدخل في هذا الباب ما رواه بعض التابعين عن احتباس «جبريل عن النبي عليه السلام حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف، وذي القرنين، والروح، ولم يَدْرِ ما يجيبهم. ورَجَا ان يأتيَه جبريل بجواب ما سألوه عنه. فقال عكرمة: فأبطأ عليه أربعين يوماً. وقال مجاهد: اثنتي عشرة ليلة. وقيل: خمسة عشر يوماً. وقيل: ثلاثة عشر. وقيل: ثلاثة أيام. فقال النبي عليه السلام: أبطأتَ عليّ حتى ساء ظني واشتقت إليك. فقال جبريل عليه السلام: إني كنت أشوقَ، ولكني عبدٌ مأمور وإذا بُعِثْتُ نزلتُ، وإذا حُبستُ احتبست. فنزلت الآية: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ (مريم: ٦٤). وأنزل: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (الضحى: ١ـ٣)[٦٩].

حديث الإفك

وقد يشتدّ انقطاع الوحي على نفس الرسول[٧٠]، حينما يتعلّق السبب بتهمة خطيرة رُميتْ بها عائشة. وهذا ما تناوله المفسرون وعلماء القرآن بتوسّع في حديث الإفك الذي كان سبباً في نزول الآيات (١١ ـ ٢٢) من سورة النور (٢٤). فمما قالته

عائشة بعد ان أوشك الأوس والخزرج على الاقتتال بسبب اعتذار الرسول من عبد الله ابن أُبيّ: «... وبكيتُ يومي ذلك لا يرقأ لي دمعٌ ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان ان البكاء فالقٌ كبدي... فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنتْ عليّ امرأة من الأنصار. فأذنتُ لها وجلستْ تبكي معي ... فبينما نحن على ذلك، إذ دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل. وقد لبث شهراً لا يُوحى إليه في شأني شيء»[٧١].

نزول الوحي مرتين في حادثة واحدة

ويحدث ان تعظم الهوّة الزمنية بين حدوث السبب ونزول الوحي، فتُقَدّرُ بسنة كاملة. فحسب ما يروي علي بن أبي طالب ﷺ متحدّثاً عن الآية ١٠١ من سورة النساء: سأل قوم من التجار رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنا نضرب في الأرض فكيف نصلي؟ فأنزل الله: **﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ﴾**.

ثم انقطع الوحي. فلما كان بعد ذلك بحول، غزا النبي ﷺ فصلّى الظهر، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم. هلاّ شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أُخرى مثلها في إثرها. فأنزل الله تبارك وتعالى بين الصلاتين: **﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً﴾** (النساء: ١٠١).

فهذا الخبر يبيّن ان الوحي قدّم، في مرحلة أولى، إجابة جزئية عن السؤال الملقى على الرسول. ثم انقطع الوحي. وعندما همّ «أهل الشرك» بما همّوا به من غدْر بالرسول وبأصحابه، نزل، في مرحلة ثانية، تمام الآية. وغير خاف ان القول بوجود فاصل زمني بين قسمي الآية مقدّر بحول لا يمكن قبوله؛ لأن دلالة الآية وتركيبها النحوي لا يستجيبان للفصل الذي مال إليه المفسرون وعلماء القرآن في ما ارتضوه من سبب نزول[٧٢].

امتحان الرسول

وما نودّ بيانه ان القدامى التمسوا في هذا التباعد الزمني فائدة مهمة هي إثبات قدرة النبي على مواجهة ما يعرض له من عقبات أو مسائل يستعصي عليه حلها رغم ما في العملية من مشقة على النفس. فهذا التباعد إذن يشكّل اختباراً حقيقياً للرسول وامتحاناً له في تبليغ الرسالة.

النتيجة

إن ما نخرج به ـ بعد استعراضنا للشكلين المعبّرين عن الفاصل الزمني بين وقوع السبب ونزول الوحي ـ رغبة المفسرين وعلماء القرآن في الإلمام بدقائق الوحي كلّها من جهة التقبّل. وأثبتوا، في هذا المقام، غلبة التعاقب الفوري بين السبب والوحي الموافق له[٧٣]، وهو ما ينسجم مع تصوّرهم لإنزال القرآن من «اللوح المحفوظ». فالقرآن، في تقديرهم، أُنزل دفعةً واحدةً إلى السماء الدنيا، ثم نزل منجّماً بحسب النوازل والحوادث[٧٤]. ويعني ذلك كله ان الأسباب التاريخية المباشرة للتنزيل أخرجتْ القرآن من وجود أول كامن إلى وجود ثان ظاهر. وعلى هذا النحو أسّس القدامى منظومة عن الوحي والنبوة منسجمة العناصر توافق فيها مقدّماتها ومسلّماتها غاياتها ومقاصدها. ولكن متى أنعمنا النظر في حقيقة هذا الانسجام وتدبّرنا مرجعيته المعرفية، بان لنا انسجاماً شكلياً.

ثالثاً ـ أهم وظائف الوحي من خلال أخبار أسباب النزول

إن الأصل في الوحي ان ينزل بياناً لقدرة الله وإرادته وتذكيراً بوعده ووعيده وإخباراً بتاريخ الأمم الماضية مع أنبيائها، الخ. ويبدو ان جُلّ ما نزل في هذه المواضيع لم تستدعِهِ أسباب تاريخية مباشرة. ولذلك غلبت على أسباب النزول مباحث تصف علاقة الرسول بصحابته وبخصومه من قريش وأهل الكتاب، فضلاً عما له صلة بسيرته ومغازيه. وفي هذا السياق بدا الوحي ـ في تصوّر القدامى له ـ ناهضاً بوظائف أهمها: الوظيفة التأديبية، والوظيفة التبريرية.

١ ـ الوظيفة التأديبيّة:

تتمثّل هذه الوظيفة في نزول الوحي تفنيداً لموقف أو رأي اعتقد الرسول ﷺ صوابه. وهذا ما يجلوه مثلاً سبب نزول الآية ٣٤ من سورة النساء، إذ يقول مقاتل بن سليمان: «نزلت هذه الآية في سعد بن الربيع، وكان من الأتقياء، وامرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير وهما من الأنصار. وذلك انها نَشَزَتْ عليه فلطمها. فانطلق أبوها معها إلى النبي ﷺ. فقال: أفْرَشْتُهُ كَريمَتي فلطمها! فقال النبي ﷺ: ارجعوا، هذا جبريل عليه السلام أتاني. وأنزل الله تعالى هذه الآية. فقال رسول الله ﷺ: أردنا أمراً وأراد الله أمراً، والذي أراد الله خير. ورُفِعَ القصاص»[٧٥]. فقد انتصر الرسول لبنت زيد وأذِنَ لها كي تقتص من زوجها. إلاّ ان اجتهاده فنده الوحي بسرعة داعياً إلى علاقة اجتماعية يكون فيها الرجال قوّامون على النساء. والواضح، هاهنا، ان مجتمع الدعوة لم يكن مهيّأ لقبول رأي الرسول. ذلك ان الأعراف الاجتماعية السائدة وقتئذ والنظام التراتبي الذي يخضع له المجتمع من جهة العلاقات بين الرجل والمرأة كانت تحول دون إعطاء الحق للمرأة في الاقتصاص من الرجل. وهذا ما يفسّر تخلّي الوحي عن تصوّر للعلاقات الأسرية سابق لعصره[٧٦].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

حكم الرسول لولا الوحي

وكاد الرسول ﷺ يحكم برأيه دون تحكيم كتاب الله حينما أراد البت في قضية سرقة عُرضَتْ عليه. «ذلك ان رجلاً من الأنصار يقال له طعمة بن أبَيْرق، أحد بني ظفر بن الحارث سرق درعاً من جار له يقال له: قتادة بن النعمان. وكانت الدرع في جراب فيه دقيق. فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب، حتى انتهى إلى الدار وفيها أثر للدقيق. ثم خبّأها عند رجل من اليهود يقال له: زيد بن السمين. فالتمِست الدرع عند طُعْمَة فلم توجد عنده وحلف لهم والله ما أخذها وما له بها من علم. فقال أصحاب الدرع: بلى والله لقد أدْلَج علينا فأخذها. وطلبنا أثره حتى دخل داره. فرأينا أثر الدقيق. فلما أن حلف تركوه واتّبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه. فقال: دفعها إلى طُعْمَة بن ابَيْرق. وشهد له ناس من اليهود على ذلك. فقالت بنو ظفر ـ وهم قوم طعمة ـ انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ.

فكلّموه في ذلك وسألوا ان يجادل عن صاحبهم. وقالوا: ان لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرئ اليهودي، حتى أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (النساء: ١٠٥)[٧٧].

وكانت للرسول اجتهادات غير مصيبة في قرارات عديدة لها ارتباط متين بمغازيه والمواجهات بينه من جهة وبين قريش واليهود من جهة أُخرى. وقد يتوفّر له أكثر من حل لمجابهة وضع ما، وهذا ما حصل له في معركة بدر مع الأسرى. وفي ذلك يقول عبد الله بن عمر (ت ٧٣هـ) مبيّناً سبب نزول الآية ٦٧ من سورة الأنفال (٨): «استشار رسول الله ﷺ في الأسارى أبا بكر. فقال: قومك وعشيرتك، خلِّ سبيلهم، واستشار عمر فقال: اقتلهم. ففداهم رسول الله ﷺ. فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾.

واعترض الوحي على النبي حين أذِن «للمنافقين» بالقعود وعدم الخروج إلى الجهاد مما كان سبباً في نزول الآية ٤٣ من سورة التوبة[٧٨]. وربما لم يحسن النبي أيضاً معاملة بعض أصحابه مثلما حصل له مع ابن أُمّ مكتوم (ت ٢٣هـ). فأدّى ذلك إلى نزول الآيتين الأولى والثانية من سورة عبس[٧٩].

وهناك رأي آخر يتبناه الشريف المرتضى، وأكثر الشيعة، ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «انها نزلت في رجل من بني أُمية، كان عند النبي ﷺ فجاء ابن أُم مكتوم، فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك، وأنكره عليه»[٨٠].

«إن الرواية المنسوبة إلى الإمام الصادق عليه السلام في ان الحديث عن رجل من بني أُمية، لا تتناسب مع أجواء الآيات؛ لأن الظاهر من مضمونها ان صاحب القضية يملك دوراً رسالياً، ويتحمّل مسؤولية تزكية الناس»[٨١].

٢ ـ الوظيفة التبريرية:

ينزل الوحي أحياناً لتبرير قول أو سلوك يأتيه الرسول ﷺ أو بعض صحابته. ويتم ذلك من أحد طريقين: التعليل أو الإثبات. فمن أمثلة التبرير الحاصل من

طريق التعليل خبر سبب نزول الآية ٥٢ من سورة الحج (٢٢) في قصة معروفة عند القدامى بقصة «الغرانيق العلى»، وفيها ثلاثة آراء:

الرأي الأول: فعندما «رأى رسول الله ﷺ تولّي قومه عنه، وشقّ عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به، تمنّى في نفسه ان يأتيه من الله تعالى ما يقارب به بينه وبين قومه؛ وذلك لحرصه على إيمانهم. فجلس ذات يوم في ناد من أندية قريش كثيرٌ أهله، وأحبّ يومئذ ان لا يأتيه من الله شيء ينفرون عنه. وتمنّى ذلك. فأنزل الله تعالى سورة: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾.

فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (*) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾.

ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدّث به نفسه ويتمنّاه: «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى». أي: إنهن طيور جميلة ذات منزلة رفيعة، ومنها ترتجى الشفاعة[٨٢]. فلما سمعت قريش ذلك فرحوا. ومضى رسول الله ﷺ في قراءته. فقرأ السورة كلها، وسجد في آخر السورة. فسجد المسلمون لسجوده، وسجد جميع من في المسجد من المشركين ... وتفرّقت قريش وقد سرّهم ما سمعوا، وقالوا: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر ... هذه تشفع لنا عنده. فإن جعل لها محمد نصيباً فنحن معه. فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام. فقال: ماذا صنعت؟ تلوتَ على الناس ما لم آتِكَ به عن الله سبحانه، وقلتَ ما لم أقُلْ لك. فحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً وخاف من الله خوفاً كبيراً. فأنزل الله هذه الآية:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحج:٥٢)[٨٣].

الرأي الثاني: إنكار هذه الحادثة مطلقاً، وجعلها من الأساطير والخرافات أو الإسرائيليات في التفسير، يقول صاحب تفسير الأمثل:

«ذكر الباحثون ضعف رواته وعدم الثقة بهم، ولا دليل على انه من رواية ابن عباس»[٨٤].

الرأي الثالث: ان النبيﷺ كان يتلو سورة النجم وبلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخرى﴾ استغل بعض المشركين المعاندين هذه الفرصة فنادى بلحن خاص: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهنّ لترتجى» فأشكلوا على الناس بالتشويش على كلام الرسول[٨٥].

تبرير الرسول

أما التبرير من جهة الإثبات، فمثاله ما يرويه عبد الله بن مسعود عن سبب نزول الآية ٦٨ من سورة الفرقان (٢٥)، إذ يقول: «سألت رسول اللهﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: ان تجعل لله نداً وهو خلقك. قال: قلتُ: ثم أي؟ قال: ان تقتل ولدك مخافة ان يطعم معك. قال: قلتُ: ثم أي؟ قال: ان تُزاني حليلة جارك. فأنزل الله تعالى تصديقاً لذلك: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾ (الفرقان:٦٨).

ففي هذه الحالة وافق قول الرسولﷺ منطوق الوحي. ذلك ان وجوه ارتكاب الذنب، حسب الرسول، ثلاثة: الشرك بالله، والقتل بغير وجه حق، والزنى. وهذه الوجوه الثلاثة تضمّنتها الآية من خلال تكرّر ثلاثة أفعال منفيّة هي: «لا يدعون»، و «لا يقتلون»، و «لا يزنون».

وجليّ ان الوظيفة التبريرية التي علّقها المفسرون وعلماء القرآن بالوحي لم تقتصر على اجتهادات الرسول، وإنما تعدتها إلى ما سيؤسس لمبحث من مباحث علوم القرآن، ونعني به «مبحث الموافقات». وأنموذجه المشهور عندهم «موافقات عمر»[٨٦]. ولئن اقتصرت تلك الموافقات على أقوال نطق بها عمر فكرّسها الوحي قرآناً، فإن الرجل أتى أفعالاً منافية مثلاً لبعض أحكام الصوم مما أدى إلى نزول آية الرخصة: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي

الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٧)[٨٧].

وقد يبرر الوحي تصرفاً مشيناً يصل إلى حد القتل، فيجعله من باب الخطأ لا من باب العَمْد. وهذا ما يبسطه الخبر الموضّح لسبب نزول الآية ٩٢ من سورة النساء[٨٨].

رصد ثلاث دلالات

إن هاتين الوظيفتين اللتين نهض بهما الوحي تعويلاً على بعض أخبار أسباب النزول، مكّنتنا من ان نرصد منها ثلاث دلالات:

إثبات الوحي

أولاً: إثبات تاريخية الوحي المحمدي. فعلى الرغم من ان الوحي، لدى عامة المسلمين، مفهوم مفارق، فإنه في الوقت نفسه منغرس في واقع العلاقات الاجتماعية والسياسية، ومتعلّق بمختلف المؤسسات الثقافية المعبّرة عن معاش الناس واجتماعهم. ولذلك، فإن نزول الآيات على أسباب دليل ساطع عندهم على خاصية التنجيم في القرآن. فهو لم ينزل مفرّقاً «إلاّ لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معيّن»[٨٩]. وكان نزول الوحي في رأي قتادة «بحسب المصالح في الحوادث والنوازل وغيرها»[٩٠].

ولا شك في ان الإقرار بتاريخية الوحي يترتّب عليه التسليم بأمرين هما:

١ ـ تاريخية الأحكام القرآنية المستخرجة من النص الديني.

٢ ـ تاريخية الإطارين الثقافي والمعرفي اللذين نزل فيهما الوحي. فقد «يكون النص القرآني في نزوله أجاب عن أوضاع ظرفية سأل عنها المسلمون الرسول، ولم يُحْتَفَظْ لنا في زمن الجمع إلاّ بما أجاب به الوحي، وقد قُطِعَ عن السؤال البشري، فبدت الأحكام التي أجاب بها الوحي مغلقة وصمّاء استعصت على الحوار، وقصرت عن التعايش مع المشاغل الحية في المجتمعات اللاحقة.

ومن هذه الزاوية انسلّت الأعراف من غير ان يحسّ المتدبرون في النص بوجودها؛ لأنهم أفراد من هذه المجتمعات يؤوّلون بحسب أحوالهم الثقافية»[٩١].

غير ان المفسرين والفقهاء القدامى لم يكن يعنيهم من تاريخية الوحي إلاّ ما يقيم البرهان على النزول المنجّم للقرآن، ولم يجرؤوا على إخضاعه كله لهذه الخاصية المميّزة للوحي. والعلة في ذلك ـ على ما يبدو ـ خوف الأجيال التي أعقبت جيل الدعوة من مراجعة الأحكام القرآنية، ومن بيان نسبيتها، ومن ثم تاريخيتها، وهو ما قد يدعوهم إلى تقويض ما اعتقدوا انه منظومة أحكام قرآنية مطلقة، ولذلك شدد القدامى، أكثر ما شددوا، على الجانب المفارق في الوحي حتى لا يُطعَن في حقيقة النبوة.

دور الرسول في تلقيه للوحي

ثانياً: تأكيد المفسرين وعلماء القرآن الدور المهم للرسول في تلقّي الوحي. والحجة في ذلك ان محمداً بلّغ الجماعة المؤمنة الوحي كلّه المنزّل عليه، بما فيه الآيات المنطوية على لوم له. وفي ذلك أمارة على أمانته في التبليغ وعلى عدم تدخّله في الصياغة اللغوية للنازل عليه، حتى إن عائشة نُسِبَ إليها القول التالي: «من حدّثك ان محمداً ﷺ كتم شيئاً من القرآن فقد كذب»[٩٢].

والحاصل ان في أخبار أسباب النزول بياناً لمؤاخذة الوحي الرسول على بعض اجتهاداته مما يوفّر ضمانات كافية للقدامى لإثبات أهمية دور الرسول في تلقّي الوحي وتبليغه. ومكّن هذا التصور من الرد على الطاعنين في النبوة منذ وقت مبكر. ودوننا قول ابن عباس متحدثاً عن الآية ١٤ من سورة المؤمنون (٢٣): «إن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب هذا الآيات لرسول الله ﷺ. فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿خَلْقاً آخَرَ﴾ عجب من ذلك، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾

فقال رسول الله ﷺ: اكتبْ فهكذا نزلت. فشك عبد الله وقال: إن كان محمد صادقاً فيما يقول فإنه يوحَى إليّ كما يوحى إليه، وإن كان كاذباً فلا خير في دينه.

فهرب إلى مكة. فقيل: إنه مات على الكفر. وقيل: إنه أسلم يوم الفتح»[٩٣].

والحق أن القول بسلبية دور الرسول يتفق ونزول الوحي بلغة العرب وسننها في الأداء والتواصل والإبلاغ. ولا شك في ان الوحي يستدعي وجود هذا الوسيط اللغوي الذي يكون فيه الرسول مساهماً بشكل من الأشكال في نقل الوحي إلى قرآن عربي[٩٤].

بشرية الرسول

وثالثاً: إن الوظيفتين اللتين أدّاهما الوحي في أخبار أسباب النزول دلّتا بوضوح على بشرية الرسول ﷺ وبيّنتا حدود اجتهاداته. فهو كغيره من البشر، يخطئ ويصيب، يحكّم عقله ويخضع لرأيه الذي يراه صواباً. فهو إذن لا يستطيع معرفة محتوى الوحي المنزّل عليه بصفة قبليّة[٩٥]. وفعلاً فإن القرآن يقدّم الرسول في صورة تاريخية واقعية بعيدة جداً عن مظاهر التضخيم والمبالغة، وذلك على خلاف ما ترويه كتب السيرة النبوية حين أسندت إليه صفات خارقة، ونسبت إليه معجزات سواء قبل البعثة أم بعدها[٩٦].

الوحي والدين

والمهم بالنسبة لنا ان الوحي ـ من البعد الأنتربولوجي[٩٧] ـ ظاهرة لصيقة بالدين، يمكن الوقوف على خصائصها وآثارها في الواقع التاريخي من ناحية، وعلى ما تؤديه من دلالات وما تنهض به من وظائف من ناحية أخرى. فللوحي، من هذا المنظور، معقوليته الخاصة[٩٨] التي تختلف دون شك عن معقوليتنا الحديثة والمعاصرة. ولذلك يصبح السؤال عن أصل الوحي ومنبعه غير ذي جدوى[٩٩]. ونعتقد ان الاستئناس بالمنهج الأنتروبولوجي يساعد على اقتراع تعريف للوحي عموماً. وهذا ما قام به بعض المفكرين المعاصرين حينما دعوا إلى فهم الوحي باعتباره ظاهرة لغوية ثقافية. إذ «يمكننا القول بوجود وحي في كل مرة تظهر فيها لغة جديدة، وتجيء لكي تعدّل جذرياً من نظرة الإنسان عن وضعه، وعن كينونته في العالم، وعن علاقته بالتاريخ، وعن فعاليته في إنتاج المعنى. إن الوحي يعني حدوث معنى جديد في الفضاء الداخلي للإنسان... وهذا المعنى يفتح إمكانيات لا

نهائية أو متواترة من المعاني بالنسبة للوجود البشري»[١٠٠].

وتتمثل قيمة هذا التعريف للوحي في مواءمته بين أنماط الوحي التوحيدي في الديانات الكتابية الثلاث المجسّمة أساساً في نصوص التوراة والأناجيل والقرآن. وفضلاً عن ذلك يقدّم التعريف ذاته رؤية جديدة لمسألة معارضات القرآن في الفكر الإسلامي[١٠١].

خاتمة البحث

وخلاصة ما نصل إليه في خاتمة هذا البحث أن أخبار أسباب النزول عرّفتنا بتصوّر القدامى للوحي، وبتمثّلهم لمرحلة الدعوة المحمدية. حيث كانت الثقافة العربية تنهض على المشافهة طوال القرن الهجري الأول، ولم تتحول بعض العلوم الإسلامية إلى نصوص مكتوبة إلاّ في العقد الأخير من النصف الأول من القرن الثاني، إذا استثنينا النص القرآني الذي اكتمل كتابته أثناء خلافة عثمان بن عفان[١٠٢]. وقد وقر في نفوسهم ان ما نقلوه عن حال النبي عند تقبّل الوحي وما بيّنوه من علاقات زمنية بين وقوع السبب ونزول الوحي هو الحقيقة التاريخية عينها. فلا نبالغ إذا قلنا إن الحفاظ على الوحي كان التعويل فيه على الرواية الشفوية التي كان لها أثرها في اختلاف القراءات وتباين المصاحف، ذلك أن الوحي ظل خاضعاً لبعض التغييرات التي شرّعها الرسول أثناء حياته، واقتضتها ظروف الرواية الشفوية[١٠٣]. وظنوا انهم بهذا العمل يستعيدون على صعيد الحكي فترة انموذجية من تاريخ الإسلام. ولكن «ليس الخبر كالعيان» على حد عبارة الجاحظ المشهورة.

* * *

الهوامش

(١) انظر: الدكتور محمد أركون، المكانة المعرفية والوظيفة المعيارية للوحي، مثال: القرآن. ضمن كتابه: القرآن: من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني: ص١١ ـ ١٩، طبعة أولى، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠١م.

(٢) انظر: فصل«Immanence et Trascendance» بقلم رويار مسراحي (R. MISRAHI) في: Encyclopaedia Universalis, Corpus 9, pp 789-792.

ففي هذا الفصل يرى المؤلف ان مفهوم «المحايثة» ظهر، أول ما ظهر، مع الفيلسوف الهولندي سبينوزا (SPINOZA) (ت ١٦٧٧م) بعد نقده الجذري لميتافيزيقيا التعالي. وقد مهّد له السبيل إلى هذا النقد الفيلسوف الإيطالي جيوردانو برونو (G. BRUNO) الذي أُحرق حياً بروما سنة ١٦٠٠م بسبب تقويضه فلسفتي أفلاطون وأرسطو ودفاعه عن أُطروحة كوبرنيك (COPERNIC) (ت ١٥٤٣م). ويرى جون بوتيرو (JEAN BOTTERO) أن مفهوم التعالي نجم مع ديانة بلاد الرافدين منذ الألف الثالث قبل الميلاد، ثم احتفت به الشعوب السامية في مختلف أديانها، وهذا ما تشهد على صحته خاصة أسفار التوراة. انظر كتابه:

La plus vieille religion en Mésopotamie, éd. Gallimard, Paris, 1998, p 94.

(٣) يرى يوسف فون آس (JOSEPH VAN ESS) أن مفهوم الوحي، من منظور كلامي، لم يتبلور في الإسلام المبكر، إذ ينبغي، كي يتحقق ذلك، انتظار عصر الفلاسفة المسلمين ومنهم على وجه الخصوص ابن سينا (ت ٤٢٨هـ). انظر:

Verbal inspiration? Language and Revelation in classical Islamic Theology, in Qur`an as text, op. cit., p.189.

(٤) يقول المنصف بن عبد الجليل: «إننا لنرى ان تاريخ الوحي لا رسم الوحي وتقييده بالترتيب الاجتهادي هام في فهم حركة المفاهيم وتطوّر دلالاتها نحو الوضوح والتكوّن، ومن أين للمؤرخ ان يظفر بذلك إن لم يعوّل على نقد الأخبار في الوحي والسيرة معاً على أساس من المقايسة والمقارنة». انظر: ملاحظات في الوحي والقرآن والنبوة، ضمن مجلة: حوليات الجامعة التونسية، ص: ٢٥ ـ ٢٦، العدد: ٤٤، سنة ٢٠٠٠م.

(٥) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، العلامة الراغب الاصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، مادة «وحي»: ص ٨٥٨ ـ ٨٦٠ ، دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية ـ بيروت ١٩٩٢م.

(٦) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا: ص٧.

(٧) الوحي والقرآن والنبوة، هشام جعيط: ص١٧، دار الطليعة ـ بيروت ٢٠٠٠م.

(٨) النبوة، مرتضى المطهري، نقله إلى العربية: جواد علي كسّار: ص٥٤ ـ ٥٥، مؤسسة أم القرى ـ بيروت ٢٠٠٤م.

(٩) انظر على سبيل المثال: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم: ج١، ص٢٣٦.

(١٠) انظر: النبوة، مرتضى المطهري: ص٥٦ ـ ٥٧، مصدر سابق.

(١١) بسط التجربة النبوية، الدكتور عبد الكريم سروش: ص١١٧ ـ ١٢٣، مؤسسة صراط الثقافية ـ طهران ١٩٩٩م.

(١٢) انظر: المصدر السابق: ص١٣٣ ـ ١٣٧.

(١٣) راجع على سبيل المثال: العقيدة والشريعة في الإسلام، إجناس جولد تسيهر «I. GOLDZIHER»: ص٥، ٦، ١٨.

وراجع أيضاً: موقف الاستشراق الوضعي من الوحي المحمدي، أحمد علي المجدوب، ضمن أعمال الملتقى الإسلامي المسيحي الثاني بعنوان: معاني الوحي والتنزيل ومستوياتهما: ص٢٣٠ ـ ٢٣٣، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، الطبعة الأولى، تونس ١٩٨٠م.

(١٤) انظر: الوحي القرآني من المنظور الاستشراقي ونقده، محمد ماضي: ص١٣١، دار الدعوة ـ الاسكندرية ١٩٩٦م.

(١٥) انظر:

Watt: The Islamic Revoltion in the Modern warld. 1969. PP 190_191.

(١٦) انظر: الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، الدكتور محمد ماضي: ص١٢٤ ـ ١٢٥ (مصدر سابق).

(١٧) المستشرقون والدراسات القرآنية، الدكتور محمد حسين علي الصغير: ص٤٢، دار المؤرخ العربي ـ بيروت ١٩٩٩م، نقلاً عن: دائرة المعارف الإسلامية الألمانية: ج٩، مادة: «الدين»، تعريب: الدكتور عبد الحميد يونس وجماعته ـ القاهرة ١٩٣٣م.

(١٨) المصدر السابق:ص٨٠.

(١٩) الشخصية المحمدية، معروف الرصافي: ص٩٥ ـ ٩٦، دار الجمل ـ المانيا ٢٠٠٢م، نقلاً عن السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي: ج١، ص٢٣٩، دار إحياء التراث ـ بيروت.

(٢٠) الشخصية المحمدية، معروف الرصافي: ص١٦٢، مصدر سابق.

(٢١) حواسنا هي هذه الأدوات التي نعرفها سواء كانت خمساً أم عشراً. وهي أداة الارتباط بعالم الطبيعة الخارجي. أما العقل فهو القوة الموجودة في الإنسان، التي تمارس التحليل والتركيب والتجريد، أي القوة الاستدلالية التي تستخدم في العلوم.

(٢٢) انظر: النبوة، مرتضى المطهري: ص٥٨ ـ ٥٩، مصدر سابق.

(حيث يؤمن الشيخ المطهري بهذه النظرية ويدعمها بشواهد كثيرة، للمزيد راجع الكتاب نفسه: ص٥٨ ـ ٦٥).

(٢٣) موجز في أصول الدين (المرسل ـ الرسول ـ الرسالة)، الشهيد السيد محمد باقر الصدر (١٩٨٠م)، تحقيق: عبد الجبار الرفاعي: ص٢٢٣ ـ ٢٢٤، قم ٢٠٠١م.

(٢٤) المصدر السابق: ص٢٢٥ ـ ٢٢٧.

(٢٥) انظر: مصدر السابق: ص٢٣٠ (بتصرف قليل).

(٢٦) معظم الفلاسفة يوافقون ابن رشد على موقفه المعبّر عنه في كتابه: فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال: ص١٤ ـ ١٥، تحقيق: جورج حوراني، ليدن (هولندا) ١٩٥٩م.

(٢٧) انظر على سبيل المثال: رأي الفارابي الداعم في: الجمع بين رأي الحكيمين، تحقيق: البير نصري نادر: ص١٠٤، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٥٩م.

(٢٨) أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الملقب بـ «فيلسوف العرب» وكان أبوه أميراً على الكوفة، ولاه عليها الخليفة المهدي (خلافته ١٥٨ ـ ١٦٩هـ)، ثم هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ).

وحظي الكندي بالشهرة في عهد المأمون، حتى إن المعتصم اتخذه معلماً لابنه أحمد، وسيهدي الكندي إلى أحمد هذا عدة رسائل، ومن ثم يمكن ان نفترض ان الكندي ولد حوالي سنة ١٨٠هـ في البصرة، أو في الكوفة، وهذا أرجح؛ لأن أباه كان والياً على الكوفة، ثم ذهب إلى بغداد لإتمام دراسته الفلسفية والعلمية، ويفترض انه غشي أوساط المترجمين من اليونانية والسريانية إلى العربية، ألف الكندي عدداً هائلاً من الرسائل في مختلف فروع علوم الأوائل: الفلسفة، علم النفس، الطب، الهندسة، الفلك، الموسيقى، التنجيم، الجدل الديني، السياسة.

(انظر: موسوعة الفلسفة، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ج٢، ص٢٩٧، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٨٤م).

(٢٩) في الفلسفة الأولى (ضمن رسائل الكندي الفلسفية)، يعقوب بن إسحاق الكندي: ص٩٧، تحقيق: عبد الهادي أبو ريده ـ القاهرة ١٩٥٠ ـ ١٩٥٣م.

(٣٠) المصدر السابق: ص١٠٣ ـ ١٠٤.

(٣١) انظر على سبيل المثال: فصول المدني، أبو نصر محمد الفارابي، ترجمة وتحقيق: د. م. دنلوب: ص١٣٦، منشورات مطبعة كامبردج ١٩٦١م. وكذلك انظر: «في أقسام العلوم العقلية» في تسع رسائل، أبو علي الحسين بن سينا: ص١١٥، ضمن «الإلهيات» في الشفاء، القاهرة ١٩٦٠م.

(٣٢) انظر: السياسة والوحي ـ الماوردي وما بعده، حنا ميخائيل، تعريب: شكري رحيم: ص٤٩، دار الطليعة ـ بيروت ١٩٩٧م.

(٣٣) مجلة: قضايا إسلامية معاصرة، بيروت، العددان: ٢٤، ٢٥، صيف وخريف ٢٠٠٣م ـ ١٤٢٤هـ، مقال للأستاذ علي حرب: ص٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٣٤) لعل من أوضح أسس المنهج الأنثروبولوجي «Anthropologic» أنه لا يسأل عن أصل الظواهر من وجهة نظر أنطولوجية «Ontology»، بل يكتفي بتتبع الظاهرة المعينة في ما تحمله من دلالات وما تؤديه من وظائف ضمن نظام معرفي وسياق تاريخي مخصوصين، ومعلوم ان الباحثين الغربيين طبقوا، منذ زمان، هذا المنهج في دراسة النصوص الدينية. انظر في ذلك مثلاً:

HANS WALTER WOLF, Antropologie de Γ Ancien Testanment, Genève 1974..

والملاحظ ان من الباحثين العرب من قال بإجراء «مقاربة ظواهرية» للوحي المحمدي.

راجع مثلاً: هشام جعيط، الوحي والقرآن والنبوة: ص١٨؛ ومحمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة وتعليق: هاشم صالح: ص١٧ ـ ٤٢، دار الطليعة ـ بيروت. والأنطولوجيا: «Ontologie» كلمة تعني الكينونة أو الوجود، ولكنها تعني أيضاً المبادئ الأولى والتأسيسية التي لا مبادئ بعدها، أو قبلها، والقرآن بالنسبة للوحي هو وحده الذي يحتوي على هذه المبادئ الأولية، ولذا فإن علم أصول الدين، وعلم أصول الفقه تشكّلا من خلال استخراج الأحكام منه وبالاعتماد عليه، وبالتالي فنظرية المعرفة في الإسلام هي قرآنية أساساً.

(وانظر أيضاً: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، محمد أركون، ص١٤٢، مصدر سابق).

(٣٥) الجامع الصحيح، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي وجماعته: ج٣، ص٣٣٧، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٣٦) المصدر السابق نفسه، وقارن أسباب النزول، للواحدي النيسابوري (ت٤٦٨هـ): ص٤٦٧، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٨م؛ ولباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: حمزة النشرتي وآخرون: ص٤٦٤، المكتبة العلمية ـ القاهرة.

(٣٧) تفسير الطبري، محمد بن جرير: ج٩، ص٢٨٣. والوَجْد حسب تعريف علي الجرجاني (ت ٨١٦ هـ): «ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلّف وتصنّع. وقيل: هو بُرُوق تلمع، ثم تخمد سريعاً» ، كتاب التعريفات: ص٣٢٣، دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٨٥م.

(٣٨) البُرَحَاء: «الشدة والمشقة، وخصّ بعضهم به شدة الحمى» ، لسان العرب، ابن منظور، مادة «برح».

(٣٩) أسباب النزول، للواحدي النيسابوري، مصدر سابق: ص٣٢؛ وانظر أيضاً: مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ): ج٧، ص١٨٢ ـ ١٨٣، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٧م؛ وراجع أيضاً: صحيح البخاري: ج٣، ص٢٦٧.

(٤٠) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ): ج٢٠، ص٦٣، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٦م. وقد ورد النص نفسه عند الواحدي في أسباب النزول: ص٤٨٢؛ والسيوطي في لباب النقول: ص٤٨٣.

(٤١) راجع: تفسير الطبري: ج٣، ص٦٣٥؛ والتفسير الكبير، فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ): ج٣٢، ص٢٤٩، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت؛ والإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم: ج١، ص١٣٠ ـ ١٣١، المكتبة العربية ـ بيروت ١٩٩٧م.

(٤٢) تفسير الطبري: ج٣، ص٦٣٦. وفي نظر الرازي ان النبي غُشِيَ عليه عند رؤيته جبريل على صورته الأصلية، انظر: تفسير الرازي: ج١٢، ص١٦٢.

(٤٣) تفسير الرازي: ج١٥، ص٧٦؛ وانظر أيضاً: صحيح البخاري: ج٣، ص٣٣٧.

(٤٤) انظر: أسباب النزول، الواحدي النيسابوري: ص٢٨٧.

(٤٥) نَغَضَ الشيء نَغْضاً: تحرّك في ارتجاف واضطراب.

(٤٦) أسباب النزول، الواحدي النيسابوري: ص٢٨٧.

(٤٧) صحيح البخاري: ج٣، ص٢١٩.

(٤٨) تفسير القرطبي: ج٤، ص٤٢. وقد نُسِبَ هذا الوصف إلى أسماء بنت عميس (ت ٤٠هـ) في تفسير الطبري: ج٤، ص٤١٩.

(٤٩) تفسير القرطبي: ج١٢، ص٦٩. وفي السياق نفسه يقول ابن عباس: «وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا»؛ تفسير الطبري: ج١١، ص٣٧٤.

(٥٠) تفسير الطبري: ج١٢، ص٩٠.

(٥١) للقطب الرازي (ت ٧٦٦هـ) تحديد مهم للإنزال، إذ يقول: «الإنزال لغة بمعنى الإيواء وبمعنى تحريك الشيء من علو إلى أسفل. وكلاهما لا يتحققان في الكلام. فهو مستعمل فيه في معنى

مجازي...»؛ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم: ج١، ص١٢٥ ـ ١٢٦، المكتبة العربية ـ بيروت ١٩٩٧م.

(٥٢) اختلف القدامى في تأويل معنى «الثقل» في الآية: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ المزمل. انظر مثلاً: تفسير القرطبي: ج١٩، ص٢٦ ـ ٢٧.

(٥٣) لا يمكن، في نظر تور أندري، اعتبار النبي (صلى الله عليه وسلم) ــ عند تلقيه الوحي ـ مصاباً بالصرع (L` épilepsie) ، إذ لو كان ذلك صحيحاً لظهرت عليه أعراض ذاك المرض. راجع:

Mohamet: Sa vie et sa doctrine, éd Maisonneuive Paris, 1979, p. 50.

وانظر في هذا السياق: الإسلام بين الرسالة والتاريخ، عبد المجيد الشرفي: ص٣٥، دار الطليعة ـ بيروت ٢٠٠١م.

(٥٤) يقول ابن خلدون: «ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات لأن وحيه من وحي الشيطان، وأرفع أحوال هذا الصنف ان يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص، فيهجس في قلبه عن تلك الحركة، والذي يشيّعها في ذلك الأجنبي ما يقذفه على لسانه فربما صدق ووافق الحق وربما كذب» ، المقدمة لابن خلدون (ت٨٠٨هـ): ص٢٠٠، دار أحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٥٥) العهد القديم، سفر إشعياء، الإصحاح ٢١، الفقرتان ٣ و ٤، دار الكتاب المقدّس، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٩م.

(٥٦) تُطلق صفة «مسبّخ» في العهد القديم على من نام نوماً عميقاً.

(٥٧) العهد القديم، سفر دانيال، الإصحاح ١٠، الفقرات ٨ ـ ١١.

(٥٨) يرى بعض المستشرقين ان نبي الإسلام هو الوحيد من بين المُلْهَمين الذي «ألّف» كتاباً ضخماً من الوحي دون ذكر كيفية تقبّله له. انظر:

TOR ANDRAE, Mahomet: Sa vie et sa doctrine, op. cit., p.45.

(٥٩) لم يستبعد هشام جعيط بصفة حاسمة ما صوّره القدامى عن حال الرسول عند تقبّل الوحي، بل اكتفى بتقديم صياغة «جديدة» لما روّجه الوجدان الإسلامي بخصوص الوضع غير العادي الذي يكون عليه النبي لحظة تلقي الرسالة.

انظر: الوحي والقرآن والنبوة: ص٧٧ ـ ٧٩، دار الطليعة ـ بيروت ٢٠٠٠م.

(٦٠) انظر: أسباب النزول، بسام الجمل: ص٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٦١) تفسير الطبري (جامع البيان): ج ٢٢، ص ١٦، تقديم: خليل الميس، ضبط وتخريج: صدقي العطار، دار الفكر ـ بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

(٦٢) أسباب نزول الآيات، الواحدي النيسابوري: ص٢٧٣، مؤسسة الحلبي وشركاه ـ القاهرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، توزيع دار الباز ـ مكة المكرمة.

(٦٣) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، الإمام فخر الدين الرازي: ج٢٣، ص١٦٥، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت؛ وانظر الخبر نفسه في تفسير الطبرسي (مجمع البيان): ج٧، ص١٧٩، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٦٤) أسباب النزول، الواحدي النيسابوري: ص٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٦٥) لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، تحقيق: حمزة النشرتي وآخرون: ص٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٦٦) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، الإمام فخر الدين الرازي: ج٣١، ص١٠١.

(٦٧) انظر مثلاً: تفسير القرطبي: ج٣، ص٢١٨، و ج٨ ص١٣٩، و ج٩، ص٧٤؛ وراجع أيضاً: لباب النقول، لجلال الدين السيوطي: ص١٥٠ و٢٥٢ و ٤٦٦.

(٦٨) قارن مثلاً بين صيغتي الخبر المتعلق بسبب نزول الآية ٨٤ من سورة التوبة لدى الواحدي، أسباب النزول: ص٢٦١ ـ ٢٦٢؛ والسيوطي، لباب النقول: ص٢٣٦ ـ ٢٣٧. وقارن أيضاً بين الواحدي، أسباب النزول: ص٢٨٧؛ وتفسير القرطبي: ج١٠، ص١٠٩ في شأن الآية ٩٠ من سورة النحل.

(٦٩) تفسير الطبري: ج١١، ص٨٦؛ وانظر أيضاً: لباب النقول لجلال الدين السيوطي: ص٢٨٨؛ وتفسير مجمع البيان للطبرسي: ج٦، ص٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٧٠) عبّر القدامى عن هذا الانقطاع بـ «فترة الوحي». انظر مثلاً: صحيح البخاري: ج٣، ص٣١٨، (مصدر سابق).

(٧١) أسباب النزول، الواحدي النيسابوري: ص٣٣١؛ وراجع أيضاً: لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي: ص٣١٣.

(٧٢) انظر: أسباب النزول، بسّام الجمل: ص٢٣٩، المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء ـ بيروت، المؤسسة العربية للتحديث الفكري ـ بيروت ٢٠٠٥م.

(٧٣) إن القول بالتعاقب الفوري بين السبب ونزول الوحي يتعارض مع ما ذهب إليه هشام جعيط حينما قال: «لدى الرسول دائماً مسافة زمنية بين إتيان الوحي واستيعابه في الداخل وتخريجه في شكل قرآن» ، الوحي والقرآن والنبوة: ص٩١ ـ ٩٢.

(٧٤) من الواضح ان الجمع بين طورين في نزول الوحي مكّن العلماء الأشعريين (أغلب أهل السنة) من التوفيق بين اعتبار كلام الله قديماً ونزول القرآن منجّماً، وهذا ما سمح لهم بالرد على أطروحة المعتزلة والشيعة القائلة بخلق القرآن وحدوثه.

(٧٥) أسباب النزول للواحدي النيسابوري: ص١٥٥؛ وانظر أيضاً: لباب النقول، جلال الدين السيوطي: ص١٢١ ـ ١٢٢.

(٧٦) يرى الدكتور محمد الطالبي: ان الرسول كان مدافعاً عن حقوق المرأة ـ حسب متطلبات ذلك العصر ـ انظر: أُمّة الوسط: الإسلام وتحديات المعاصرة: ص١٢١، سراس للنشر ـ تونس ١٩٩٦م؛ وكذلك انظر: عيال الله، أفكار جديدة في علاقة المسلم بنفسه وبالآخرين: ص١٧٣ ـ ٢٠٥، مركز دراسات فلسفة الدين ـ بغداد ٢٠٠٦م.

(٧٧) أسباب النزول، الواحدي النيسابوري: ص١٨٣.

(٧٨) انظر: تفسير الطبرسي: ج٥، ص٤٤؛ وتفسير القرطبي: ج٨، ص٩٨ ـ ٩٩.

(٧٩) انظر: الواحدي، أسباب النزول: ص٤٧١ ـ ٤٧٢.

(٨٠) انظر: الأمثل في تفسير كتاب الله، ناصر مكارم الشيرازي: ج١٩، ص٣٦٣، نقلاً عن تفسير مجمع البيان للطبرسي: ج١٠، ص٤٣٧؛ وكذلك انظر: الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي: ج٢٠، ص١٩٩ ـ ٢٠٤، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ١٩٧٣م.

ويقول محمد حسين الطباطبائي في تفسير الميزان: ص١٩٩:

«وردت الروايات من طرق أهل السنة ان الآيات نزلت في قصة ابن أُمّ مكتوم الأعمى دخل على النبيﷺ وعنده قوم من صناديد قريش يناجيهم في امر الإسلام، فعبس النبي عنه فعاتبه الله تعالى بهذه الآيات، وفي بعض الأخبار من طرق الشيعة إشارة إلى ذلك».

(٨١) تفسير من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله: ج٢٤، ص٦٥، دار الملاك ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٨م.

وللمزيد عن الموقف الشيعي تجاه هذه الآيات انظر كتاب: مراجعات في عصمة الأنبياء من منظور قرآني، عبد السلام زين العابدين، ص٤٠٣ ـ ٤٥٦، الطبعة الثالثة، بيروت ٢٠٠٠م.

(٨٢) الغرانيق: جمع غرنوق، وغرنيق، اسماً لطائر مائي أسود أو أبيض، أو اسم الكركي أو طائر يشبهه. والغُرنيق (بالضم كزُنبور) معناه الشاب الأبيض الجميل، وتسمى الخصلة من الشعر المفتلة الغرنوق كما يسمى به ضربٌ من الشجر. ويطلق الغرنوق والغرانق على ما يكون في أصل العوسج اللين النبات. ويقال: لمة غُرانقة وغرانيقة، أي: ناعمة تفيئها الريح، أو الغرنوق الناعم المستتر من النبات.

(انظر: مشكلات القرآن وتفسير سورة الفاتحة، الإمام محمد عبده: ص٩٩، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت).

(٨٣) المصدر السابق: ص٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٨٤) انظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي وجماعته: ج١٠، ص٣٣٨، مؤسسة البعثة ـ بيروت ١٩٩٢م.

(٨٥) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي: ج١٠، ص٣٣٩، وفي ج١٧، ص٢٢١، يقول: ... ويمكن ان يكون عند قراءة النبي للآية: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾، (النجم، الآية: ١٩ ـ ٢٠) تلا الشيطان بعدها ان الإنسان المتصف بالشيطنة الجملتين بين المشركين الحاضرين «لأن هاتين الجملتين كانتا بمثابة الشعار الذي يودع المشركين بهما أسماء الأصنام» فاشتبه جماعة مؤقتاً بأنهما تتمة للآية!!

(٨٦) راجع: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: ج١، ص٩٩ ـ ١٠١، (النوع العاشر: فيما أنزل من القرآن على لسان بعض الصحابة)؛ وانظر أيضاً: الواحدي، أسباب النزول: ص٣٢٣. وفي هذا السياق اعتبر عبد المجيد الشرفي ان تضخيم «دور عمر على حساب عليّ بن أبي طالب بصفة خاصة... من آثار الصراع السياسي الذي دار حول الخلافة» ، راجع: لبنات: ص١٢٣، دار الجنوب للنشر ـ تونس ١٩٩٤م.

(٨٧) انظر: أسباب النزول للواحدي النيسابوري: ص٥٤.

(٨٨) انظر: المصدر السابق: ص١٧٣ ـ ١٧٤.

(٨٩) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، الإمام فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ): ج٣٠، ص٢٥٧، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (دون تاريخ).

(٩٠) المصدر السابق: ج٢٣، ص٥٤؛ وانظر أيضاً: تفسير القرطبي: ج١٦، ص٨٤ ـ ٨٥ .

(٩١) تاريخية التفسير القرآني، نائلة السليني الراضوي: ج١، ص٢٥١، المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء ـ بيروت ٢٠٠٢م.

(٩٢) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ): ج٦، ص١٥٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.

(٩٣) التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي: ج٢٣، ص٨٦ ، مصدر سابق.

(٩٤) انظر: الإسلام بين الرسالة والتاريخ، عبد المجيد الشرفي: ص٣٧ ـ ٣٨، دار الطليعة ـ بيروت ٢٠٠١م.

(٩٥) انظر: سورة الأعراف الآية ٨٨. وتقول عائشة: «من زعم ان رسول الله يخبر ما يكون في غد، فقد أعظم على الله الفرية»، تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): ج٧، ص٣.

(٩٦) انظر أنموذجاً على هذه المبالغات في: الطبقات الكبرى، محمد بن سعد (ت٢٣٠هـ): ج١، ص٩٩ ـ ١١٣، و ١١٥ ـ ١٢٨، دار الفكر ـ بيروت ١٩٩٤م.

(٩٧) المقصود بالبُعد الأنتربولوجي: البُعد الإنساني العام، أي الذي ينطبق على الإنسان في كل الأزمنة وفي مختلف المجتمعات الإنسانية. فمسألة الحياة، والموت، وما بعد الموت كلها أشياء تخص البشر أو تؤرقهم في أي مجتمع وجدوا، وفي أي عصر عاشوا. بالطبع انهم يقدمون أجوبة مختلفة عن هذه التساؤلات بحسب الثقافة المتوافرة في المجتمع، وبحسب التراث الديني السائد، ولكن الأسئلة تظل هي هي لأنها أسئلة كونية، أي انتربولوجية خاصة بالإنسان في كل زمان ومكان.
(القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، محمد أركون، ترجمة وتعليق: هاشم صالح: ص١٤٣، دار الطليعة ـ بيروت).

(٩٨) انظر: محمد أركون:
The Notion of revelation, op. cit., p. 81

(٩٩) انظر: فصل «الأنتروبولوجيا الدينية» بقلم روجيه باستيد (R. BASTIDE) في:
Encyclopaedia Universalis, op. cit., II, pp. 271 ـ 275.

(١٠٠) الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، محمد أركون، ترجمة وتعليق: هاشم صالح: ص٨٣.

(١٠١) انظر: أسباب النزول، بسّام الجمل: ص٢٤٩، المؤسسة العربية للتحديث الفكري ـ بيروت، والمركز الثقافي العربي ـ بيروت ـ الدار البيضاء ٢٠٠٥م.

(١٠٢) الوحي من التنزيل إلى التدوين، حمادي المسعودي: ص١٣١، دار سحر للنشر ـ تونس ٢٠٠٥م.

(١٠٣) المصدر السابق نفسه.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی